ولد الهدى فالكائناتُ ضياءُ وفم الزمان تبسم وثناءُ

عطاء الرحمن الندوي

لقد شاهد تاريخ العالم والتاريخ البشري جواً مكفهرا وبيئة مكثفة وإنتفاضة عالمية لا يوجد لها نظير فيه حيث كان العالم مملوءة بالأعمال الشنيعة ، وكانت الإنسانية في ظلام عميق غارقة في الضلالة والجهالة حتى ضاقت عليها الأرض بما رجبت ، وإذا ألقينا نظرة خاطفة على تلك الأوضاع التي واجهتها الإنسانية لوجدنا أنها وفقت حائرة عند مفترق الطرق (*Cross Way*) بما واجهته من أحداث ونكبات ووقائع وأزمات وبما منيت به من أزمات شتى منها : أزمة الاخلاق وأزمة المعتقدات وأزمة العقائد والأفكار حتى بلغت حالة أشرف المخلوقات إلى حد عبادة الأحجار والأصنام ، حيث كان الناس يعبدون ما ينحتون من الأحجار والأصنام ثم يسجدون لها ويقدمون إليها الأطعمة من الأكل والشرب ، وأصبحت الطرق مسدودة ، وكانت الإنسانية تتيه في بيداء ليس فيها نور ولا سراج ، وإن العداوة قد رسخت في القلوب وتمكنت من وجود الإنسان في كل مجال من مجالات الحياة الفردية والجماعية ، وفي جميع الطبقات العالية والسافلة ، وكانت الحياة جحيما لا تطاق فضلا عن وجود ما يسمى بالمواسات والمساوات وبالألفة والمحبة ، حتى بلغت وطأة العداوة وشدتها مبلغا حيث بأن الأب فقد الرحمة لأولاده ذكورا وإناثا فكان يقتلهم خشية إملاق ، وقد سجل القرآن الكريم تلك الواقعة الرهيبة الوحشية ومنعهم عن قتل أولادهم ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ (سورة الأنعام -١٥٢) . وما وقفوا على هذا الحد بل وأدوا البنات فرارا من العار حتى خرج القرآن الكريم عن صمته على هذه الأعمال الوحشية والبربرية والشنيعة بقوله الوعيد ﴿ وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ ؟ سورة التكوير ٨-٩ .

وفي مثل هذه الأوضاع القاسية القائمة جاء شهر مباركٌ وهو الشهر الربيع الذي هبت فيه نفحة ربانية وإيمانية لإنقاذ الإنسانية من الوثنية الجاهلية وإيصال سفينة البشرية إلى شاطئ النهر التي كانت تغرق في البحر العميق ، ومن ضيق المادية إلى رحاب العزة والكرامة والطاعة والعبادة ، فبعث الله النبي العربي ، وولد النبي الأمي في هذا الربيع وانكشف هذا الظلام الحالك وسطع نور النبي الأمي العربي صلي االله عليه وسلم ، وأشرقت شمس الهداية الربانية والنور المحمدي فأضاءت العالم كله ، وأخرجت الدنيا من شقاء ليس بعده شقاء ومن الشقاء الخالد إلى السعادة الدائمة ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، حيث جاء الرسول العربي بشيراً لهذه الأوضاع المكفهرة والفضاء المقتمم والبيئة المكثفة التي لم تكن مبنية على إنتشار الغازات السامية والدخان الكثيف فحسب بل هي بسبب كثرة المعاصي والفواحش وإنتشار الذنوب والمنكرات وطغيانها على المثل الأخلاقية والقيم الإنسانية ونذيرا للعالم بما كان فيه من حياة عبودية وثنية وعيش جاهلي وتبدلت الأرض غير الأرض التي كانت قبل الرقي والإزدهار والتكنولوجيا الحديثة ، وإن الأمة التي كانت وحشية وكانت في ﴿ بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها فمن لم يجعل الله له نور فما له من نور ﴾ أصبحت أمة ذات رسالة سماوية سامية ، وكانت تتقاطر على النار والهلاك والدمار كتقاطر الجنادب والفراش على النار ، فأنقذها الله تبارك وتعالى بذلك السراج الذي أنار به العالم ، كما أشار إليه القرآن الكريم بلسانه الخالد ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ (سور آل عمران : ١٠٣) وجاء الرسول الأمي الأمين صلي الله عليه وسلم في هذا الربيع وفي هذا الشهر المبارك برسالة عالمية باقية إلى آخر يوم الناس في هذه الدنيا ، فيوجد فيها كل ما يحتاج إليه الناس من شريعة عادلة وقانون شامل ، وفوق كل ذلك أنزل الله تبارك وتعالى كتابه المبين الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ سورة الفصلت : ٤٢

ومن هنالك كانت بعثة النبي العربي منة من الله تبارك وتعالى المنة الكبرى على الناس كافة وعلى العاملين أجمعين وتغيرت أخلاك تلك الأمة الوحشية بالأخلاق الفاضلة ، وكانت قبل بعثة النبي العربي على مفترق الطرق تائهة صارت الآن هداة مهدية ، وكان كل ذلك بفضل النبي الأمي العربي صلي الله عليه وسلم ، وكان النبي صلي الله عليه وسلم على خلق عظيم والصفات العالية كما وصفه القرآن الكريم ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ سورة القلم : ٤

وكما وصفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي رواه الإمام الترمذي في الشمائل النبوية : لم يكن رسول الله صلي الله عليه وسلم فاحشا متفحشا ، ولا صخابا في الأسواق ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ..... فإن هذا الشهر المبارك شهر الرحمة وربيع الزمان ولولا النبي العربي لما كان الربيع ، لأنه ولد فيه الهدى وطلع منه النور ، وبولادة النبي العربي ظهرت في هذا الشهر العظيم تباشير الصبح وطلائع السعادة البشرية ، فحل الربيع بتلك الذكريات العاطرة ، لو لا هذا الربيع لجدبت الزروع الإنسانية ولأقفرت القلوب البشرية ولما انفجرت ينابيع الحكمة الإلهية ، وبرزت تلك الآيات البينة التي تدل دلالة واضحة على صدق خاتم النبيين الذي جاء عنه في رواية

أخرجها البخاري يقول عطاء بن يسار : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلي الله عليه وسلم في التوراة قال أجل : والله أنه لموصوف في التورات ببعض صفته في القرآن : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ سورة الأحزاب : ٤٥

فلا يحل الربيع بنفحاته الطيبة وأزهاره المفتوحة وطيوره المتغردة ونغماته المترنمة إلا بذلك النور الذي أرسله بالحق بشيرا ونذير وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وبهذا النور الذي أضاء منه الكون وأنار به الطرق يقول القائل :

لم لا يضيء بك الوجود وليله
فيه صباح من جمالك مسفر
فبشمس حسنك كل يوم مشرق
وببدر وجهك كل ليل مقمر

وبهذه المناسبة قال قائل :

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

ويقول شاعر الرسول صلي الله عليه وسلم حسان بن ثابت رضي الله عنه بلسانه البليغ بشأن الرسول صلي الله عليه وسلم :

وأجمل منك لم تر قط عيني
وأكمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب
كأنك خلقت كما تشاء

فإن الحياة البشرية لا تستطيع أن تتشرف بذلك النور المحمدي وبربيع الزمان وشهر الرحمة هذا إلا إذا سجلت إسمها في قائمة الأمة المحمدية وتفتخر بالشريعة الإسلامية وتستسلم لها طوعا ولا كرها ، حبا وكرامة لا جبرا ولا قهرا، لأن سفينتها لا تصل إلى شاطيء النجاة قط إلا بتجديفها حيث أن جميع ما تتمتع به الإنسانية في هذه الحياة الدنيا إنما هي بركة من بركات هذا الربيع ورحمة من رحمات النبي الأمي صلي الله عليه وسلم كما أعلن الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز حيث قال ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (سورة الأنبياء : ١٠٧) وإن التحديات والصعوبات التي تعاني منها الإنسانية عامة والأمة المحمدية خاصة من مشارق الأرض ومغاربها وجميع المصائب والشدائد التي ننن منها نحن المسلمون اليوم شرقا وغربا تحت وطنتها إنما هي بسبب ابتعاد العالم عن هذا الربيع ولأجل تنازل الأمة المحمدية عن الشريعة الغرآء ولا تنطبق عليها هذه الآية القرآنية ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ سورة النساء : ٦٥

فكما نقل القرآن الكريم دعوة النبي العربي الأمين لإنقاذ سفينة الحياة البشرية من الغرق في البحر العميق ﴿ إن هذا صراطي مستقيما فالتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾(سورة الأنعام : ١٥٤)

وعن هذه الأسرة المحمدية التي فتحت أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا وتركت الأمة الإسلامية على المحجبة البيضاء ليلها كنهارها حتى لم تترك مجالا لقائل أنه لا يجد في هذه الحياة المحمدية نموذجا ولا أسوة حسنة وقد بقيت عليه أمور خافية لم تظهر بعد ولذلك أعلن القرآن الكريم مجلجلا ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ (سورة الأحزاب : ٢١) ففيه أسوة حسنة ونماذج رائعة للإنسانية جمعاء ، ولها فيه أسوة صلحى ، وأسوة حربا ، وأسوة في نشر جناح الأمن والسلام وتمطيط ظلام الأخوة بين الناس كآفة ، ولأجل ذلك رفع الله تبارك وتعالى ذكره كما قال بلسانه الأبد ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ (سورة ألم نشرح : ٤)

وإن العالم والإنسانية اليوم لفي أشد الحاجة إلى هذه الأسوة النبوية ولإختيارها لإنقاذ سفينة الحياة الإنسانية حيث يعلمها هذا الربيع مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال وإعطاء كل ذي حق حقه ، ويذكر المسلمين اليوم بأن يعيدوا ثقتهم بالسيرة المصطفوية العطرة ويطالعوها من جديد حتى يكون الربيع ربيعا ، فلو لا هذا الربيع ولو لا هذا السراج ولو لا هذا النبي العربي الأمين لما انفجرت ينابيع الحكمة الربانية والهداية البشرية ، و ولو لا النبي العربي لما هبت رياح العقيدة والإيمان ولما انقشعت سحب الجهالة والضلالة ، فلا قيمة للربيع إلا بالنبي العربي ، ولا عيد في الربيع إلا بإتباع النبي الأمي الأمين عليه أفضل الصلاة والتسليم .

بقية المنشور على ص - ٧

والفوضى الخلقية وعبادة المصالح والأنانية ، لا دخل فيها لخدمة الإنسانية ودوافع النصح وعبادة الله وحده ، إنما تدور حول تعليمات شيطانية وأفكار باطلة وتبنى على الهدم لا على التعمير.

ومن أتباع هذه الديانة جميع أولئك الذين يجهلون حقيقة الحياة وغايتها ، وهم يظنون أن الحرية تعنى إطلاق زمام النفس متحررا وأن يتيحوا لها فرصة سانحة لإشباع شهواتهم ويحرروا أنفسهم عن كل نوع من المسؤوليات الخلقية ، وقد كانت هذه الطريقة سائدة في المرتبطين بالملل القديمة ، وهم وإن كانوا يتصورون الخير و الشر جانبين متضادين للحياة ، ولكنهم ما كانوا يقدرون على تمييز الخير من الشر ، وطالما كانت يتغيب المفهوم العملي للخير والشر عن أعينهم هذا : وهناك سبب آخر كبير يحمل الأهمية الأساسية و هو أنهم كانوا يعتبرون الدين مجموعة من طقوس وعادات ولم تكن في قلوبهم قيمة للدين سوى أن يتزأوا بزى الدين ، كلما مست الحاجة إلى ذلك ،وأن يقوموا بأداء صور للعبادات ، إن هذا التصور ما كان منشؤه إلا العيش في بيئة دينية محدودة، وما كان مصدر هذا الوضع إلا ذلك المفهوم الذي وجد من العلاقات التقليدية التي قامت بعين الدين والأخلاق ، فلم يتحقق لهم العز والسعادة ، لأنهم نظروا إلى المجتمع البشري من خلال منظار المحدودة ، وإن التقصيرات التي صدرت في عرض التصور الصحيح الكامل للدين ، أنتجت طبقة للجماهير لم تطلع على أمور الدين الأساسية ، إن أفراد هذه الطبقة لما كانوا يجدون الدين في زيارة ضرائح الأولياء وعادات الرقى والشعوذة ، فلم يكونوا عانشين في غفلة عن عقائد الدين من التوحيد والرسالة والجنة والنار والقيامة والآخرة فحسب بل كانوا يجهلون تماما إن هذه الحقيقة تتمثل أمام العاملين في حفل الدعوة الإسلامية كعلامة إستفهام ؟؟.